ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

العلاقات الاجتماعية في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط من زاوية مذهبية "جدلية الرفض والقبول في الحالة الإباضية"

Social Relations In The Central Maghreb, Doctrinal Vision: The Dialectic Of Rejection And Acceptance.

صص9- 26

إلياس حاج عيسى
Hadj Aissa ilyas
أستاذ مساعد، تخصّص تاريخ وسيط
جامعة ابن خلدون، تيارت (الجزائر)
ilyashistory@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2018/07/07، تاريخ المراجعة: 2018/07/16، تاريخ القبول: 2018/09/12.

ملخص: عرف المغرب الأوسط كغيره من أقاليم الغرب الإسلامي، ظاهرتين لم تفارقاه طيلة العصر الوسيط، هما العصبية القبلية، والعصبية المذهبية. ويمكن القول أن العصبية المذهبية كانت أشدّ خطراً وتأثيراً، لارتباطها بطرق فهم الدين الإسلامي، وتوجّه النخب المذهبية إلى تقديس فهمها للدين من جهة، وتخطئة وتسفيه الآخر من جهة ثانية. ولنا أن نتصوّر تأثير الذهنية المذهبية على العلاقات الاجتماعية في المناطق التي استقرّت فيها ثنائيات مذهبية، مالكية-إسماعيلية، مالكية-إباضية، إباضية وهبية-إباضية نكّارية. سنسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى رصد ملامح من العلاقات المجتمعية، انطلاقا من قناعات مذهبية، والتنقيب عن علاقات الجفاء والودّ بين المذاهب، والكشف عن مساحات التعارف والاعتراف حول المعارف المذهبية، ودور الفقهاء في رسم تلك العلاقة.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط؛ العصبية؛ الإباضية؛ المالكية؛ الفقهاء؛ المجتمع؛ الزواج.

Abstract: The central Maghreb has known like other provinces of the Muslim West, two distinct phenomena throughout the middle Ages: tribal fanaticism, and doctrinal fanaticism. It can be said that doctrinal fanaticism was more dangerous and influential, because it was linked to ways of understanding the Islamic religion. The doctrinal elites were interested in both sanctifying their religious understanding on the one hand, and disrespect the others on the other hand. We can imagine the impact of the doctrinal mentality on social relations

in areas where were located those doctrines' dualities: Malikia-Ismailia, Malikia-Ibadia, Ibadia-Wahabia, and Ibadia-Nekaria.We will try from our scientific research to demonstrate the sight/ view of social relations drawn from doctrinal convictions.

Key words: Central Maghreb; Doctrinal elites; Malikism; Ibadism; The society; Marriage

مقدمة: طُبع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط عامة بطابع المذهبية، ولم تفارقه طيلة فترته، ووصل الأمر بالفقهاء إلى رفض الجماعات غير المتمذهبة عموما، أو المخالفة في المذهب، وقريبا من هذا المعنى أورد العبدري في رحلته نقلا عن أحد الفقهاء، وهو أبو بكر بن محمد بن قسوم، قوله[1]:

تبًّا لفرقة قومٍ لا ينتمون لمذهبٍ

وعادة ما يطلق الباحثون في التاريخ الوسيط على العلاقة التي تجمع بين المذاهب الإسلامية في بلاد المغرب عامة مصطلح «الصراع المذهبي[2]»، في حين يفترض وقبل أن نصدر هذا الحكم أن نطرح بعض التساؤلات التي قد تعيد النظر في مدى مصداقية هذا المصطلح أو نسبيته. كأن نتسائل عن مجالات المعرفة والتعارف والاعتراف بين المذاهب المختلفة، وعن حضور الآخر في أدبيات كل مذهب، وعن مظاهر الجفاء والصراع وحدوده، وتأثير ذلك على العلاقات الاجتماعية. وعن احتمال وجود علاقات من الودّ.

إذا استثنينا كتب الملل والنحل التي تحتوي على بعض العموميات حول الفرق والمذاهب؛ فإنه يصعب علينا إيجاد عقيدة وفقه مذهب معيّن في كتب مذهب آخر، لكن نجد إشارات إلى المبادئ العامة لكل مذهب؛ فمثلا لا نجد تفصيلات عن المذهب الإباضي في كتب المالكية،[3] لكننا بالمقابل نجد ما اصطلح عليه في أدبيات التراث السني بـ"مبادئ الخوارج العقائدية" بصفة عامة، بالمقابل نجد اهتماماً أكبر بالعقيدة الشيعية في المصادر السنيّة، لتبيان خطورتها ربما، والتحذير من شدّة تأثيرها.

فيما يتعلق باهتمام المصادر الوسيطة بالمذاهب المخالفة من حيث الاجتهادات العقائدية والفقهية يكاد يكون الأمر منعدماً، بل أكثر من ذلك فإننا نجد عدم اهتمام مؤرخي الفترة الوسيطة بالمذاهب والتيارات الفكرية

التي تقع خارج تصنيف أهل السنة والجماعة، مما يجعلها تقع في مجموعة من الأخطاء حينا، والتناقضات حينا آخر؛ ففيما يتعلق بالتعريفات التي تقدمها المصادر المغربية والمشرقية حول المذهب الإباضي مثلاً نلاحظ خلطاً في مفهوم مصطلح "الإباضية"، أو بالشخصيات الإباضية، أو عدم التدقيق فيها، فمثلا نجد أبي عبد الله محمد الصنهاجي، الذي وضع كتابه "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" في حدود سنة 617هـ/1220م، يتحدث عن صاحب الحمار "أبا يزيد مخلد بن كيداد الاباضي"[4] من دون أن يدقّق أنه من النكّار، وفي هذا احتمالين:

الأول: أن الصنهاجي يعرف أن ابن كيداد ينتمي لفرقة النكار، فهو في هذه الحالة لا يهتم بوضع الفروق بين الوهبية والنكار.

الثاني: أنه لا يعرف فرقة النكار؛ فاشتهر عنده أن ابن كيداد إباضي وفقط، وفي هذا خلط، وفي نفس السياق يعرف ابن الأبّار أبي يزيد "اليفرني الإباضي صاحب الحمار"[5]، ومن قبلهما عرّف ابن حوقل أبي يزيد أنه إباضي[6]، ومما يؤكد عدم إلمام الكثير من المؤرخين بتفاصيل التاريخ الإباضي المغربي قول ابن حوقل أن عبد الله بن أباض وعبد الله بن وهب الراسبي قدما إلى جبل نفوسة وماتا به![7]، ويقول في موضع آخر عنهم: إنهم إما "إباضية من أصحاب عبد الله بن أباض، أو وهبية من أصحاب عبد الله بن وهب"[8]، ويبدو أن الخلط في المعلومات المتعلقة بالإباضية كان شائعا عند مؤرخي المغرب الوسيط؛ فصاحب مفاخر البربر يدّعي أن سجلماسة "قد عادت إلى أيدي الخوارج الإباضية"[9] في سنة 352هـ/963م، وفي سياق الإتيان بمعلومات شاذة دون الاعتماد على سند متين، ما نجده عند صاحب كتاب الاستبصار عند وصفه لمدينة شَرْوَسْ بجبل نفوسة أنها "ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى، وفي نظرها أزيد من 300 قرية"[10]، وقوله: "فيهم من لا يرى الاغتسال بالماء جملة، وإذا كان على أحدهم غسل يتمرغ في التراب"[11]، وقوله: "والزنا الحرام بجبل نفوسة في مذهبهم!"[12]، وهي كلها آراء غريبة لا نجد ما يسندها في كتب العقيدة والفقه لإباضية المغرب، ولا حتى في المصادر الفقهية

المغربية غير الإباضية، والغالب في هذه الآراء أنها تتكون نتيجة أحكام مسبقة وعدم احتكاك، خاصة أن صاحب الاستبصار بدأ وصفه بالقول: "أخبرني الثقة قال: رأيت رجلا دخل بلادهم فرأى إنسانا...."[13].

مظاهر الجفاء والعداء: غلب على بلاد المغرب مظاهر العداء، حتى أصبح مصطلح "العلاقات المذهبية" مرادفاً لمصطلح "الصراع المذهبي" أكثر من شيء آخر، والملاحظ أن الصراع يكاد يكون مظهرا طبيعيا في الفترة الوسيطة؛ فالمصادر تنقل لنا مظاهر من الصراع، مع تأييد مطلق للجهة المذهبية التي تناصرها، وبعض تلك الحوادث تعكس حالات من الضغينة والحقد، التي تتكون نتيجة الاستقواء السياسي لصالح مذهب معين، وقمع المذاهب المخالفة الأخرى؛ فينتظر أتباع المذاهب الأخرى الفرصة المناسبة ليتحول جزء منهم إلى آلات قتل بشتى الوسائل، ويمكن بسهولة استخراج العبارات التي تعبر عن رفض الآخر وإقصائه من المصادر، وبخاصة كتب النوازل إذا تعلق الأمر بالمصادر المالكية، أو كتب السير إذا تعلق الأمر بالكتب الإباضية؛ فمن فقهاء المالكية نجد عيسى الغبريني يجيب عن سؤال حول التحبيس على مساجد الإباضية وعلى فقرائهم، وفي نص السؤال العديد من مظاهر العداء، على غرار "ثم قام قائم من أهل السنة وخرب مساجدهم"، أو "وبعد أن أراح الله منهم"، أو جواب الفقيه نفسه "القيام على هؤلاء واستتابتهم من الأمور اللازمة لمن ولاه الله الحكم"[14]. وتظهر بعض الأحكام مخيفة أكثر كقول أبي الحسن اللخمي: "وهم أشد في كيد الدين من اليهود والنصارى"، وقوله: "وأما هدم المسجد الذي بنوه فحق"[15]، وكان ابن أبي زيد قد استفتي من قبل "هل يجوز تعليم الخوارج وأولادهم القرآن والكتب أم لا؟"[16].

استغل العامة في القيروان خاصة وفي بلاد المغرب عموما، التوجهات السنية للأمير الزيري المعز بن باديس[17]؛ فانقضت على الشيعة قتلا وحرقا؛ "فقتل من الرافضة خلق كثير في ديارهم وحوانيتهم، وأحرقوهم بالنار وانتهبت ديارهم وأموالهم، وزاد الأمر واتصل القتل فيهم في جميع بلاد إفريقية، وقيل إن القتل وقع فيهم في جميع المغرب"[18]، وانفرد النويري بذكر أبيات شعرية نسبها لأبي الحسن الكاتب المعروف بابن زنجي، يقول في مطلعها[19]:

شَفَى الغَيْظُ في طَيِّ الضَميرِ المُكَتَّمِ دِماءُ كِلابٍ حُلِّلَت في المُحَرَّمِ

فَـــــلا أَرقا اللهُ الدُّموعَ التي جَرَتْ أَسَى وَجَوى في ما أُريقَ مِنَ الدَّمِ
هي المِنَّةُ العُظْمى التي حَلَّ قَدرُهـا وسارَتْ بِها الرُّكبانُ في كُلِّ مَوسِمِ.

ولا نعـدم مثـل هـذه المظـاهر في الطـرف الآخـر، إذ يـورد الـدرجيني حادثـة غريبـة عـن فقيـه إباضـي يـدعى أبـو الخطـاب عبـد السـلام بـن منصـور بـن أبـي وزجـون المزاتـي (مـن علمـاء الطبقـة التاسـعة 450-500هـ/1058-1106م) أنـه اشـترى خرافـا مـن سـوق بإفريقيـة مـن بـائع، غلـب على ظنـه بعـد عمليـة البيـع أنـه صـنهاجي[20]؛ فـدفع لـه ثمـن الخرفـان، ثـم تصـدق بهـا، ولـم يجـوّز لنفسـه شـراء غـنم غلـب على ظنـه أنهـا مـن صـنهاجي! وفي سـياق ذي صـلة نتبـين فيـه دور المذهبيـة في زرع الجفـاء بـين أتبـاع المـذاهب، وربمـا بـين الخاصـة أكثر، مـا أورده الـدرجيني عـن أبـي عبـد الله محمـد بـن سـوردين أنـه تبـع النـاس يـدخلون على رجـل، ويعطي لكل واحـد منهم دينـارا، وأخـذ معهـم، وعنـدما ولّى لام نفسـه وقـبح فعلـه، وعـاد للرجـل وقـال لـه: أنـا على غير مـذهبك؛ فقـد رفـض الصـلة فـيمن ظن أنه مخالف له في المذهب[21].

وحسـب محقّـق الكتـاب- وهـو يبرّر تصـرف الشـيخ- فـإنّ مـا قـام بـه نـاتج عـن سياسـة صـنهاجة الموالـية للعبيـديين، وسياسـتها الماليـة التي تقـوم على مصـادرة الأمـوال ونهبهـا وسـلبها عـن حـق أو باطـل، ولـو كـان مسـلما. والمتتبـع لسـيرة هـذا الرجـل عنـد الـدرجيني يجـد أن زوجتـه وبناتـه كـنّ مـن ضـحايا حصـار صـنهاجة لقلعـة درجـين سـنة 440هـ/1048م، بينمـا كـان هـو غائبـا؛ فربمـا كـان الحادث سببا في جعله أكثر حقداً وحنقاً على الصنهاجيين.

ومـن المظـاهر التي تعبـر عـن رفـض الآخـر ودور الفقهـاء في ذلـك، مـا رواه الـدرجيني عـن أحـد رجـالات مذهبـه، فتـوح بـن أبـي الحاجـب المزاتـي، أنـه سـمع رجـلا مـن مـذهب مخـالف يطعـن في مـذهب الإباضـية في إحـدى قـرى الـزاب فأبـدى غضـبه وغضـب لغضـبه شـبان من مزاتـة، ووصـل بهـم الأمـر إلى قتلـه، ثـم إن الشـيخ أثنى علـيهم وشـكر فعلـتهم![22]، ومـن المظـاهر الأخـرى التي تعبـر عـن ترسـخ الفكـرة المذهبيـة في الفتـرة الوسـيطة، رفـض الأعطيـات والصـدقات؛ فقـد حـدث وأن تنـاول رجـل إباضـي مـن رجـل دينـارا دون أن يتأكـد مـن مذهبـه؛ فنـدم

وتراجع، وعزم على إرجاع الدينار بحجة مخالفة المذهب، وأنه ليس أهلا لصلته[23].

وفي قلعة بني حماد كان السلام أو ردُّ السلام على رجل من النكّار يثير التساؤل عند بعض سكان المدينة، لكن المحتمل أن هذه الظاهرة كانت ظرفية[24].

ومن أكثر الممارسات الاجتماعية التي عبّر الفقهاء من خلالها على مبدأ رفض الآخر المذهبي ظاهرة الزواج المختلط في أوساط العامة بين أتباع المذاهب؛ فقد اعترضت نازلة أحد فقهاء إفريقية خلال القرن الخامس الهجري،[25] عن امرأة اكتشفت أنها تزوجت برجل خارجي[26]؛ فلما علمت مذهبه سألت العلماء؛ فكان جواب أبي القاسم القروي السيوري (ت.462هـ/1069م)[27] أنه "إن لم يتب فرّق بينهما لأنه يخشى منه أن يفتنها ويفسد دينها"[28]، ويذهب أحد الباحثين إلى أن ضغط فقهاء المالكية على السلطة السياسية البادیسية والحمادية ساهم في إجبار الإباضية على التنازل عن مذهبهم[29] في مناطق الزاب والجريد وأريغ.

وفي نازلة أخرى يبدو فيها رأي الفقيه أكثر تشدّداً عندما استفتي في رجل سني أراد أن يتزوج بفتاة شيعية؛ فأفتى له فقهاء ببطلان النكاح، لأنهم (أي الشيعة) بمنزلة الكفار![30] كما رفض ابراهيم بن ملال المزاتي (400-450هـ/1009-1058م) أن يزوج الرجل الإباضي الوهبي ابنته لرجل من النكار، باعتباره مخالفاً، وإلا هلك، ومن الإشارات اللافتة أن يقبل بعض الفقهاء زواج المرأة برجل من مذهبها خفية عن والدها وهو وليها، خشية أن يزوجها لرجل من مذهب آخر[31]، وفي نفس السياق الذي يعبر عن حالة التنافر السائدة بين المذاهب (الشيعي- المالكي- الإباضي) كثرة النوازل المتعلقة بالزواج المختلط بين المذاهب؛ فكان أبو مسور يسجا بن يوجين اليراسني يسأل عالما آخر عن الحكم في "رجل أعطى وليته لرجل مخالف؛ فردّها على ما هو عليه من الخلاف"[32]، أو رجل "ردَّ ولده إلى مؤدب مخالف؛ فردّه إلى مذهبه"[33]، وتتكرر النوازل في هذا السياق، وأحيانا تكون المرأة مستوعبة للاستقطاب المذهبي؛

فتبدي معارضة لزواج مختلط تكون هي طرفا فيه؛ فقد اشتكت امرأة إلى فقهاء مذهبها قائلة: "أبي أراد أن يزوجني لرجل مخالف، وإني كارهة لذلك"[34].

تعبّر الحالات العديدة من النوازل المتعلقة بالزواج المختلط عن حقيقة حدوثه في أوساط العامة خلال العصر الوسيط، ممّا يبيّن ربما أن الفقهاء كانوا أكثر استشعاراً لمسألة التفوق المذهبي أو ضعفه بسبب الزواج، ويتخوّف الفقهاء حرّاس المذهب على زواج المرأة من مخالف باعتبارها الحلقة الأضعف، ممّا يؤكد أن المسألة في أحد أبعادها هي الحفاظ على عدد الأتباع وتأمينهم، والخوف من التأثير عليهم.

والملفت فيما يتعلق بالعلاقة بين الوهبية والنُكّار، أن المصادر الإباضية "الوهبية" تحاملت على حركة النكار من الناحية السياسية والفقهية تحاملا وصل أحيانا إلى درجة التكفير[35]، وهذا واضح من خلال مجموع الأوصاف التي نجدها في مصادرهم، ومنها حديث أبي زكرياء عن بعض أصحابه أن أبا يزيد مخلد ابن كيداد كان من كبار المفسدين في الأرض[36]، ووصفه بأنه "عدو الله"[37]، وشبهت فعله بفعل الخوارج[38] من أمثال نافع ابن الأزرق؛ ففي "كل قرية ومدينة مر بها في طريقه خربها وسبا ذريتها وغنم أموالها، كفعل نافع ابن الأزرق وغيره من الخوارج، بل قد زاد وأربى"[39].

كما اتهم بأنه يقتل بعد الأمان[40]، وفي حكم آخر فيه الكثير من المبالغة ذكرت نفس المصادر "أنه بلغ عدة ما خرب على يده في إفريقية ثلاثون ألف قرية لم تعمر إلى يومنا هذا، وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة"[41]؛ فمن خلال هذه الأحكام القاسية يتضح جليا أن المصادر الوهبية تتبرأ بالكلية من حركة النكّار سياسيا[42] وعقديا.

وقد استفتي بعض فقهاء الإباضية الوهبية حول النُكّار فكانت فتاويهم قاسية، تتصف بالتخويف والوعيد؛ فمنها أن بعض الفقهاء يتوعد بالهجران من يواليهم[43]، ومنها حالات تصل إلى التكفير وهو حال أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي الذي أفتى بكفر الفرق التي انشقت عن المذهب الإباضي،

وهي النكار والنفاثية والفرثية[44]، ويعتقد بعض الفقهاء أن من الوسائل التي تساعد في الحفاظ على المذهب تخويف الأتباع بالتكفير إن هم تولّوا مخالفيهم في قضايا؛ فقد استفتي "أبو محمد عبد الله بن سجميان في رجل قال: مخالفونا هم خير منَّا في كذا وكذا، قال: يكفر بذلك، وهو منه طعن، وكذلك إذا كان يصوِّب حججهم إذا أفتى بفتياهم"[45].

ومن مظاهر العداء ما ترويه بعض المصادر "الإباضية"، من أنه بعد اندثار المذهب الإباضي "الوهبي" من بعض المناطق، وما رافق ذلك من مظاهر تترجم حالات العداء والجفاء، من ذلك أنه بعد اندثار الإباضية من منطقة الحامة عمد سكانها إلى مسجد الإباضية، "وغسلوه بمياه كثيرة حتى جرت أنهارا وسالت في الطرقات، وخرجت من البلد هامية يعتقدون أن ذلك تطهيراً للمسجد"[46]، لا تقتصر هذه الظاهرة على العلاقة المذهبية المالكية- الإباضية، بل إننا نجد مظاهر شبيهة، وربما أكثر عداءً كالتصرف الذي قام به الموحدون عند اقتحامهم لمراكش عاصمة المرابطين، حيث هدموا وغيروا في شكل مساجدها بدعوى انحراف قبلتها[47].

إن من أخطر النتائج التي يصل إليها العداء بين المذاهب ظاهرة التفسيق والتضليل والتكفير، وقد استوعب بعض الفقهاء واعترفوا أن اختلاف الأمة لم يؤد إلى نتائج ايجابية[48]؛ فصرّحوا أن "ما اختلفت فيه هذه الأمة فشرّك بعضهم بعضا، وفسّق بعضهم بعضا"[49]، ومن النصوص التي فسرتها الفرق وفق هذا المعنى حديث "تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة"؛ فهذا الحديث نجده في الأدبيات المالكية كما نجده في الأدبيات الإباضية[50]، ويبدو أن هذه التصنيفات التي تجذّرت في ذهنية المغاربة خاصة، والمسلمين عامة ساهمت بشكل كبير في استسهال إصدار الأحكام والأحكام المسبقة[51].

مظاهر الودّ: يسود الانطباع من خلال ما سبق، ومن خلال اطلاعنا على المصادر التاريخية الكلاسيكية (الحوليات)، وتركيزها على الأحداث السياسية والعسكرية، أن المغرب في الفترة الوسيطة طبع بطابع الصراعات السياسية والعسكرية والمذهبية، وقد يشكل هذا الصراع النسبة الأكبر في ذهن القارئ، لذلك يفضل أن لا نسلِّم بما

ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

تقدمه بعض المصادر التاريخية والفقهية من أن العلاقة بين المذاهب كان يسودها الجفاء؛ فالمسار العام للحياة اليومية للناس في مدن وقرى المغرب كانت عادية، وربما كانت متجاهلة إلى حدٍّ بعيد تلك الذهنيات الجاهزة والمقولبة التي حدّدت العلاقة بين الأمراء مع اختلاف طموحاتهم وأطماعهم، وبين الفقهاء مع اختلاف مذاهبهم واجتهاداتهم وتعصبهم.

وعلى الرغم من ذلك تتأكد بعض الحقائق من خلال المصادر، وهي عدم معرفة الآخر والجهل به، وبالتالي سهولة إصدار الأحكام، وعدم إلمام كل طرف بفقه الطرف الآخر، ومجمل ما يجمعه كل طرف هي مبادئ عامة؛ فهذا ابن خلدون ورغم إلمامه بتاريخ بلاد المغرب إلا أن معارفه حول المذهب الإباضي تبدو محدودة وعامة، حيث يشير إلى إباضية جربة بالقول: «إلا أن القبائل الذين بها من البربر لم يزالوا يدينون لدين الخارجية، ويتدارسون مذاهبهم مجلدات تشتمل عل تآليف لأئمتهم في قواعد ديانتهم وأصول قواعدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون على دراستها وقراءتها»[52]، بالمقابل يبدو الوضع مختلفا عندما يتعلق الأمر بالأقليات المذهبية، حيث تبدي اهتماماً أكبر بفقه الآخر، ومن أهم الأمثلة في هذا المجال نجد أبي يعقوب يوسف خلفون المزاتي صاحب كتاب الأجوبة، وهو مع ذلك يمثل سابقة وسط بيئة إباضية محافظة، وهو يعبر عن اضطلاع على الفقه المقارن؛ فكان المؤلف يكتب تارة: وذهب أبو حنيفة، ونجد تارة أخرى: وروي ذلك عن مالك بن أنس وبعض أصحابه. أو قوله: وقد كان مالك أفتى به في موطّأه[53]، وفي حالة أخرى: هكذا عند جمهور الفقهاء من الحجازيين والعراقيين[54]، وقد جاء كتابه في التأكيد على اتفاق المذاهب والصحابة والتابعين في كثير من القضايا التي عرضها، وفي سياق الحديث عن الآخر، نجد الأدبيات الإباضية قد وظّفت بعض المفاهيم للاستدلال على سلطة سياسية أو أتباع مذهب آخر، ومن أكثر الألفاظ المستعملة في هذا المجال: أهل الخلاف والموحدون[55] وأهل القبلة[56].

ردمد EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

لا يمكن الحديث عن التسامح المذهبي دون الإشارة إلى النموذج الرستمي، الذي يعتبر من أكثر النماذج نجاحا في قبول الآخر؛ كما لا نجد أحسن من ابن الصغير الذي عاصر الدولة وعاش في عاصمتها، وهو المخالف لهم مذهبا؛ فلم يمنعه ذلك من الاعتراف بأن القادم إلى تاهرت من الغرباء يستطيب العيش معهم، ويبتني بين أظهرهم، والسبب حسبه رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله[57]، وكان ابن الصغير نفسه مثالا حقيقيا لمظهر الاختلاف في تيهرت الرستمية؛ فهو وإن عاش في مدينة غالبيتها إباضية، فضلا عن كون حكامها إباضيون، إلا أنه عبّر عن رفضه لمذهبهم قائلاً: "...وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذاهبهم مستقلين...؛ فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم، ولا حسن سيرهم، لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه"[58]، إذ ليس من المعتاد أن يعبر الإنسان صراحة عن بغضه وكرهه وبراءته من قوم يعيش في وسطهم، وليس يحمل ابن الصغير على هذا الموقف إلاّ شعوره بالاطمئنان في تاهرت.

ثم إن ابن الصغير انفرد بالقول أن في المدينة أعراق وأجناس مختلفة تشكل جاليات حقيقية، وكان لتلك الجاليات أحياء خاصة بها؛ فالمسألة لا تتعلق بهجرة أفراد، بدليل أن تلك الجاليات كان لها مساجدها: "وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين"[59]، وإذا بحثنا في أسباب تواجد الغرباء في تاهرت، وهو تواجد غير مألوف في مدن المغرب الوسيط في تلك الفترة، إذ البيئة الزناتية أقرب إلى البداوة منها إلى التمدّن، إلا إذا استثنينا مدنا مشهورة كالقيروان وفاس، وجدنا أن الظاهرة تعود في تقديرنا إلى عاملين رئيسين:

1- اقتصادي: يتمثل في الدور التجاري الذي بادرت به تيهرت؛ فأصبحت مدينة تجارية تربط علاقات اقتصادية مع مراكز تجارية أخرى ليس في المغرب فحسب، بل في الأندلس والسودان، والمراكز التجارية النشطة عادة ما

تستقطب الفئات الاجتماعية من مختلف المدن الأخرى القريبة والبعيدة، وهو الحال الذي كانت عليه تيهرت، وهو ما عبر عنه ابن الصغير برخاء البلد.

2- ديني مذهبي: ويتمثل في الخط الفكري والثقافي الذي سارت عليه الدولة منذ عهد عبد الرحمن، وذلك بتشجيع الغرباء على استيطان المدينة والنهوض بها، هنا يمكن الجزم أن الأئمة الرستميين كانوا متجاوزين لظاهرة الاختلاف المذهبي غير مكترثين به إلى حدود معينة، ولو أن ابن الصغير عبّر عن ذلك بمثالية الحكم، عندما أشار إلى عدالة عبد الرحمن بن رستم وحسن سيرته.

وممّا اشتهرت به تاهرت الرستمية انتشار حِلق المناظرة، إذ عبّر ابن الصغير مرّة أخرى عن جو تلك المناظرات وما يرافقها من لطف، قائلاً: "ومن أتى إلى حلق الإباضية قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك"[60]، ويبدو أنه بضعف الدولة سارعت المذاهب المتواجدة إلى الانتصار لمذهبها[61]، ومن خلال الإشارات القليلة تبين أن النقاش الفكري كان موجوداً عند بعض الحكام الحماديين؛ ففي عهد المنصور بن الناصر "كان العلماء يتناظرون في مجلسه"[62]، وتشير بعض المصادر الإباضية والمالكية إلى القليل من مظاهر الودّ في التعامل بين المذاهب على مستوى الفقهاء[63]؛ فهذا الدرجيني يورد حادثة عن أحد رجال المذهب الإباضي (الطبقة السابعة 300-350هـ/912-961م)، وهو أبو محمد جمال المدوني؛ فذكر أنه صلّى مرة بجماعة من المخالفين (والمقصود في الغالب بالمخالفين أتباع المذهب المالكي)؛ فرأى أن يقنت بهم في صلاة الصبح؛ فاختار أن يقنت بآيات الدعاء كآخر سورة البقرة، وهو لا يرى في ذلك مفسدة لصلاته على مذهبه، ثم إنه حظي بالشكر والثناء من طرفهم[64].

ما يؤكد على علاقات الوئام والتعاون التي كانت سائدة في بعض مناطق إفريقية بين المالكية والإباضية، أن الإباضية كانوا يؤمُّون نفس المساجد التي يؤمها المالكية[65]، وكانوا يملون تعاليمهم بحرية إلى جانب المالكية في الكثير من جهات إفريقية[66]، ومن مظاهر الشبه بين المالكية والإباضية علاقتهما اتجاه

السلطة الشيعية قبل رحيلها إلى مصر؛ فكان أبو خزر يغلا بن زلتاف وأبو نوح سعيد بن زنغيل ممن "عاشرا الشيعة وصبرا على المكروه في الدين تقية"[67]، بالإضافة إلى اشتراك فقهاء المالكية والوهبية في ثورة النكار.

كما أجاز بعض فقهاء إفريقية على سبيل الضرورة شهادة إباضية جزيرة جربة على أهل السنة، إذ هم أغلبية في جزيرتهم، "ولا بد من الإظهار لعزّابهم ومرابطيهم، ويستكثر منهم ويتوسم الصدق فيهم"[68].

وعرض الدرجيني على أحد الطلبة النفطيين "المالكيين" كتاب "دعائم ابن النظر"، وهو مجموع قصائد في العقيدة والأحكام الشرعية فيها ردٌّ على القدرية، وهي المعروفة "بالرائية"؛ فلمّا اطّلع عليها النفطي قال: "ما أرى ههنا إلا موافقة أهل السنة"[69]، والملفت أن المذاهب المغربية "السنية والإباضية خاصة" تشترك في اجتهادات كثيرة بالنظر إلى عودتها إلى نفس المصدر؛ ففي الرسالة التي وضعها أبو عمار عبد الكافي حول المواريث والفرائض نجده يختم رسالته بالتأكيد على التزامه ومطابقة كلامه بقول "علي وأبي موسى وأبي بن كعب، وبه قال أهل العراق"[70]، ثم إننا نجد من الفقهاء من يدعو إلى تجنب الفتنة، وقوله: إنه "إذا وقعت فتنة بين المؤمنين؛ فالأحب هو الصلح...، ومن أحب أن تغلب إحداهما الأخرى فقد دخل في الفتنة"[71]، وفي موضوع الفتنة يقر بعض فقهاء المغرب الوسيط أن التعصب القبلي هو المتسبب الأول في الفتن، وهدّدوا بالدعاء على من يحرّض عليها؛ فقال أحدهم: "دعوى القبائل هي التي تحرك الفتن؛ فادعوا الله على من دعا بها"[72].

وكان من مالكية الجريد ووارجلان وأريغ من يقرُّ لأتباع المذهب الإباضي الأخلاق الحسنة، لكنه بالمقابل يتحسس من انتماءهم المذهبي "الإباضي"، ويتسائل عن مصيرهم الأخروي، وفي هذا السياق يسأل أحدهم: "أترى يا سيدي أنهم يرجى لهم الخير عند الله لهذه الأوصاف؟ وهم على ذلك المذهب"[73]، هذه النماذج المقدمة تجعلنا لا نستبعد ما أورده أبو زكرياء عن أبي القاسم يزيد بن مخلد من أنه إذا دخل مدينة القيروان قدم عليه بعض سكانها "من المخالفين"[74] ليسألوه في فنون العلم.

وإذا صدّقنا الدرجيني فيما رواه عن أبي يحي زكرياء بن صالح اليراسني (من رجال الطبقة الثانية عشر 550-600هـ/1155-1203م) فإن الرجل سافر إلى مراكش، وكوَّن علاقة ودّية مع يعقوب المنصور عندما كان وليًّا للعهد، وبعد توليه الحكم الموحدي، وأثناء قيامه بحملة عسكرية على المغرب الأوسط وإفريقية، كان رحيما على أبي يحي، وعلى كل من شفع فيه، وعلى أكثر أهل مذهبه![75].

وعندنا معلومات في كتب التراجم الإباضية نتبيّن من خلالها موقف بعض علمائهم من المذاهب الأخرى، منها موقف أبو زكرياء يحي بن ويجمن (الطبقة التاسعة 450-500هـ/1058-1106م) عندما طلب منه شرح حديث منسوب للرسول صلى الله عليه وسلم: "هلكت فيك فئتان يا علي: محبك وبغيضك المفرط"[76]؛ فكان شرحه أن محبوه بإفراط هم الشيعة، وأما مبغضوه فهم أصناف الصفرية الذين جعلوه مشركاً[77]، وفيما يشبه تأثرا بشخصية علي بن أبي طالب من طرف كتاب السير والتراجم الإباضيين المغاربة، وصية رجل من مزاتة لأبنائه يحرضهم على مواجهة النكار، أن "قاتلوا اليوم كقتال علي بن أبي طالب أمام النبي صلى الله عليه وسلم"[78]، ودائما حول شخصية علي حاول رجل من النكار أن يستميل أبا زكريا فيصل بن ابي مسور بالقول له: "كلنا نكار، إنا قد أنكرنا على علي بن أبي طالب ما فعل من التحكيم...؛ فقال له أبو زكرياء: أما أنا فلست بنكار"[79].

ومن أقوى الأمثلة التي تؤكد على مبدأ الاحترام بين المذهبين بعد سوء الفهم ما وجدناه عند الدرجيني عن لقاء وقع بين أحد وجوه الإباضية وأحد وجوه الصوفية من مدينة توزر؛ فتناقشا في البداية، وكانت بينهما حساسية مذهبية، ثم انقلب الأمر إلى احترام متبادل[80].

وكانت جماعة من فقهاء الوهبية بقسطالية "يصلون على موتى أهل القبلة كلهم"[81]. إن الانطباع الأقرب إلى الواقع أن تصوير الجفاء والعداء المذهبي لم يكن يعني شيئا مهما بالنسبة لعموم الناس، وعندما تقام العلاقات التجارية ترسخ علاقات الود أكثر؛ فيكفي القول أن بجاية طيلة

الفترة الوسيطة كانت تمارس نشاطها التجاري مع بلاد السودان عن طريق "وسطاء من التجار الإباضيين في وارجلان وبعد ذلك في مزاب"[82]، لكن بالمقابل قد يتحول العامة من أتباع المذاهب المختلفة إلى وقود حقيقي في حالة الصراعات القبلية والمذهبية، عندها نتسائل عن دور الحكام حراس المصالح السياسية، والفقهاء حراس الدين والمذهب، ومسؤوليتهم في الصراعات القبلية والفتن المذهبية.

خاتمة: من خلال ما سبق نستنتج أن مجال المعرفة المذهبية من خلال المصادر الوسيطة فيها العديد من الأخطاء التي تحتاج إلى تدقيق وضبط، بالنظر إلى انعدام ثقافة التعارف بين أتباع المذاهب، خاصتهم وعامتهم، ممّا أدّى بشكل طبيعي إلى عدم الاعتراف، وهي ظاهرة تكاد تنطبق على كل المذاهب المكونة للنسيج المغربي (شيعية- مالكية- إباضية وهبية- إباضية نكارية).

أنتجت هذه الظاهرة صراعاً مذهبيا مزمنا في الجوانب الفكرية السياسية والعسكرية، وفي الحالة الإباضية التي اخترناها نموذجاً تبيّن أن جانب الصراع والجفاء كان حاضرا مع كل المذاهب والفرق التي اشتركت معها في المجال، قد يكون الإباضي هو المبادر في صناعة الجفاء، كما قد يكون ضحية له، وممّا يمكن استنتاجه أيضا أن فئة الفقهاء كانت أكثر حرصا على رسم خطوط الخلاف، وربما شكّلت الإمامة الرستمية نموذجا مشجعا في رسم فسيفساء عرقية ومذهبية وسط بيئة زناتية بدوية، كما أثبتت لنا بعض النوازل عند الإباضية وغيرهم أن العامة كانوا أقل التزاما بالفوارق المذهبية في مراحل الاستقرار والهدوء، وترجم بعضهم ذلك بالإقبال على الزواج المختلط بين المذاهب، لكن الملفت للنظر أنهم وقود الصراع في مراحل التوتّر!

الهوامش:

1- العبدري البلنسي "محمد" (كان حيًّا سنة 689 هـ/1290م)، **الرحلة المغربية**، تح: أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، د.ت، ص.104.

2- وصل الصراع المذهبي إلى حدود ضيقة وصل إلى حدود أتباع المذهب الواحد، ففي سنة 471هـ/1078م، وقع ببلاد أريغ صراع وسط أتباع المذهب الإباضي الوهبي بين قريتي "خيران" و"تاغمارت" وهو أول صراع بين وهبية أريغ. الدرجيني. أبو العباس أحمد بن سعيد (ت.670هـ/1271م)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح: إبراهيم طلاي، د.ن، د.م، د.ت، ج.2، ص445. يعبّر هذا الصراع في أحد أبعاده على تفوق النزعة العشائرية والقبلية، على النزعة المذهبية.

3- يتعلق الأمر كذلك بالتنظيم الذي أحاطته الجماعات الإباضية حول نفسها ودخولهم حالة الكتمان. أنظر:

Allaoua Amara, La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (11e-15e siècle), Annales islamologiques, N°42, 2008, pp. 262-263.

4- الصنهاجي "أبي عبد الله محمد"(ت.626هـ/1228م)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تح وتع: أحمد جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص22. ----5- ابن الأبار"أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي" (ت.658هـ/1260م)، **الحلة السيراء**، ط02، تح وتع: حسين مؤنس، القاهرة-مصر، 1985م، ج.02، ص .387

6- لكنه في بداية حديثه عن ثورة أبي يزيد يعدّد الفرق الإباضية والنكارية. ابن حوقل النصيبي. أبي القاسم (ت. بعد 367هـ/977م)، **صورة الأرض**، ط.2، ليدن، (د.م)، 1939م، ص.71-94.----7- ابن حوقل، **نفس المصدر**، ص.95

8- في هذه الأقوال لابن حوقل خلل واضح إذا الوهبية هم إباضية، إنما ظهر مصطلح الوهبية تمييزا لهم عن الفرق المنشقة وبخاصة النكار. **نفس المصدر**، ص.96؛ وفي موضوع آخر يتبين من خلاله اختلال الصورة النمطية لبعض المواضيع ما حكاه ابن حوقل عن برغواطة وهو الذي دخل المغرب الأقصى: "وفي برغواطة أمانة وبذل للطعام، وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام." فإن مثل هذا القول يقدح في الصورة النمطية القاتمة التي تقدم عن برغواطة. **نفسه**، ص.83.

9- مجهول، **مفاخر البربر**، درا وتح: عبد القادر بوباية، ط.1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط- المملكة المغربية، 2005م، ص105. ----10- مجهول مراكشي من كتاب القرن 6هـ/12م، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتع: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1985م، ص.144.---- 11- مجهول، **نفس المصدر**، ص.145. لا يخفى ما في هذه الطريقة من السند من ضعف بيّن، فصاحب الاستبصار سمع ممن يعتقد أنه ثقة، وهذا الأخير رأى رجلا، وهذا الرجل رأى إنسانا آخر، وهكذا. لكن التخوف أن تكون جل مصادرنا التاريخية وفق هذا السياق!

13- الونشريسي. أحمد بن يحي، (ت.914هـ/1508م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1401هـ/1981م، ج.07، ص.362-363

14- الونشريسي، **نفس المصدر**، ج.10، ص.151. في حين يرى السيوري بعدم جواز هدم مساجدهم، ص .150

16- ابن ابي زيد القيرواني. أبي محمد عبد الله، (ت. 386هـ/996م)، **فتاوى ابن أبي زيد القيرواني**، جمع وتقديم: لحمر حميد محمد، ط.2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، ص 196-.197

17- رأى بعض فقهاء المالكية رأي الخوارج في اعتبار الشيعة مجوسا زال عنهم اسم الإسلام، وأن قتالهم أولى من قتال المشركين. أنظر: بوعقادة عبد القادر، **التحول المذهبي في العهد الصنهاجي الحمادي الزيري وأثره على بلاد المغرب الأوسط**، أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد "ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، أيام: 9-10-11 أفريل 2007م، ص .375

18- النويري. أحمد بن عبد الوهاب (ت.732هـ/1332م)، **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق وتعليق: أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1984م، ص336. عن ظروف استقرار المذهب المالكي في المغرب الأوسط، أنظر: علاوة عمارة، **انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر) قراءة سوسيولوجية**، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة الرابعة عشر، العدد 56، الإمارات العربية المتحدة، 1427هـ/2007م، ص28؛ بوعقادة عبد القادر، **مرجع سابق**، ص.370-389؛ حميدي أبو بكر الصديق، **أثر المذهب المالكي في الاستقرار السياسي لبني حماد**، أعمال الملتقى الدولي حول مدينة قلعة بني حماد "ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م، جامعة المسيلة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، 2007م، ص.390-395.

19- النويري، **مصدر سابق**، ص.337

20- قال البائع للمشتري "أرا" وهي في لغة صنهاجة "هات" حسب المؤلف، ومنها عرف المشتري وهو من زناتة "مزاتة" أن البائع من صنهاجة. الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص.408. تطرح هذه الحادثة ظاهرة جديرة بالدراسة حول لغة التواصل بين القبائل البربرية، وحول بعض المفردات الخاصة بكل قبيلة، وتتبع مسار التعريب عند صنهاجة. عن اللغة العربية وبربر صنهاجة أنظر: Allaoua Amara, Texte méconnu sur deux groupes hérétiques du Maghreb médiéval, Arabica, tome L2,3, juillet 2005, pp. 368-370.

21- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص.398، 408. ---- 22- الدرجيني، **نفس المصدر**، ج.2، ص.347-348.

23 - **نفسه**، ص.398.---- 24- لأن المصدر الذي أورد هذه الحادثة أقرَّ أنه في تلك السنة قتل فيها أهل وارجلان جماعة من الأشعرية. والمالكية في الغالب لا يفرّقون في موقفهم بين النكّار والوهبية. والشيء الملفت أن حتَّى لفظة "وارجلاني" عند القلعيين تحمل مدلولا غير مرغوب فيه، وجدنا أن أحد الوارجلانيين يعتبره انتقاصاً ! حيث ردَّ على مخاطبه: "أيحل لك أن تخاطب بهذا رجلا مسلماً". عن رحلة هذا الفقيه الإباضي إلى القلعة، أنظر: الدرجيني، **نفسه**، ص.472-473.

25- هو أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث، له تعليق على المدونة، توفي سنة 460هـ/1067م بالقيروان. أنظر: ابن فرحون المالكي، ص.259. نقلا عن: محمد غزالي، **الأثر الاجتماعي لقضايا الخلع والطلاق في بلاد المغرب الاسلامي من خلال كتاب المعيار للونشريسي**، مجلة عصور الجديدة، العدد 11-12، مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران، 1435هـ/2014م، ص.153

26- لم تفصِّل النازلة عن هوية المذهب. لكن يرجح أن المقصود هو المذهب الإباضي، باعتبار تواجده في مناطق عديدة من إفريقية والمغرب الأوسط في تلك الفترة. عن المناطق التي تواجد فيها المذهب الإباضي في الفترة الوسيطة، أنظر: أبو زكرياء. يحي بن أبي بكر (ت.471هـ/1078م)، **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ/1979م؛ الدرجيني، **مصدر سابق**.

27- هو عبد الرحمان بن فاضل بن علي بن صمدون، أبو القاسم بن أبي المجد، يعرف بابن السيوري، فقيه ومقرئ من أهل إفريقية. ابن قنفذ القسنطيني "أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب"(740-809هـ)، **كتاب الوفيات**، تح: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت-لبنان، 1982م، ص.249.--- 28- محمد غزالي، **مرجع سابق**، ص142.

29- Allaoua Amara, La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (11e-15e siècle), Annales islamologiques, N°42, 2008, p. 262.

30- محمد غزالي، **مرجع سابق**، ص.142 ---- 31- الوسياني، **سير مشايخ المغرب**، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص63. نقلا عن: خالد حسين محمود، **الخلافات الزوجية بالمغرب الأدنى خلال العصرين الفاطمي والزيري(296-543هـ/909-1148م)**، مجلة عصور الجديدة، مجلة فصلية محكمة يصدرها مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران، الجزائر، العدد 13، ص105. ---- 32- مجهول، **المعلقات في روايات وأخبار أهل الدعوة**، دراسة وتحقيق الحاج سليمان بن ابراهيم بابزيز الوارجلاني، ط1، وزارة الثقافة والتراث، مسقط-سلطنة عمان،1430هـ/2009م،ص154.---- 33- مجهول، **نفس المصدر**،ص155.--- 34- **نفسه**، ص.237

35- يصرح الفقيه ابو عمرو عثمان بن خليفة المارغني بتكفير النكار، بسبب سبع مسائل. أنظر: المارغني، **رسالة في بيان كل فرقة وما زاغت به عن الحق**، ضمن مجموع رسائل، طبع بالمطبعة البارونية بالجدرية بمصر "طبعة حجرية"، ص.53. كما يجعل هذا الفقيه رسالته (ص.52- 70) في الردّ على الفرق المنشقة عن المذهب الإباضي الوهبي وهي ستّة، بالإضافة إلى فرق الخوارج كالأزارقة، وفرق المرجئة والقدرية والجبرية، والسبابية من الشيعة. وهي رسالة مهمة تبيّن تاريخ الفرق من وجهة نظر إباضية. بالمقابل نجد مظاهر الود في بعض الردود في مصادر أخرى، منها مثلا فصل عنوانه: الرد على إخواننا النكار في جميع ما ذهبوا إليه. أنظر: الوارجلاني. أبي يعقوب يوسف ابن ابراهيم السدراتي (ت.570هـ/1174م)، **الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق**، ط.حجرية، المطبعة البارونية، مصر، 1306هـ/1888م، ص.246 وما بعدها.

36- أبو زكرياء، **السير**، ص116.

37- استعمل المؤلف هذا الوصف ثلاث مرات في صفحة واحدة. أنظر: أبوزكرياء، **مصدر سابق**، ص.118-119

38- لأن كلمة "خوارج" تحمل في الغالب مدلولا سلبيا من الناحية العقائدية، فقد حرصت المذاهب والفرق على إلصاقها بكل مخالف منافس أو معادي، ونجد لها استعمالات مختلفة في الزمان والمكان بعيدا عن الاستعمال الكلاسيكي للكلمة، من ذلك

مثلا، أن المرابطين استعملوا هذا المصطلح في معركتهم الفكرية ضد الموحدين، وهذا أحد مؤرخي الدولة الموحدية يصف جانبا من ذلك الصراع قائلا: "نسبونا...إلى الكفر والضلال والخروج من الدين، فسموا أهل التوحيد خوارج وجعلوهم مبتدعين، ونسبوهم إلى الخروج من الدين." أنظر: ابن القطان المراكشي(منتصف القرن السابع الهجري)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، درسه وقدم له وحققه: محمود علي مكي، ط.02، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011م، ص.67

39- أبو زكرياء، **مصدر سابق**، ص118. ---- 40- أبو زكرياء، **نفس المصدر**، ص118. ---- 41- **نفسه**، ص.118-119.

42- تسرد المصادر الوهبية للاستدلال على التنافر بين الفريقين وقوع تناحر عسكري كبير بين النكار وإباضية مزاتة في عهد الفضل ابن أبي يزيد. أنظر: أبي زكرياء، **نفسه**، ص.120 وما بعدها.---- 43- أبو زكرياء، **نفسه**، ص156.

44- أبو زكرياء، **نفسه**، ص130. ويعارض هذا الرأي رأي آخر لأبي يعقوب الوارجلاني الذي صرّح أنّ مشايخ الإباضية امتنعوا عن تكفير أبو يزيد وغيره. أنظر: الوارجلاني، **مصدر سابق**، ص71. ---- 45- مجهول، **المعلقات**، ص.96.

46- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص484.---- 47- لا تبدو حجة الموحدين مقنعة لكل المؤرخين، بدليل تعليق ابن الوزان على تصرف عبد المؤمن اتجاه مسجد من مساجد المرابطين حيث "هدمه وأعاد بناءه لا لشيء إلا لمجرد القضاء على اسم (علي) كي يحل اسمه مكانه." ابن الوزان الزياتي (ت. قبل 957هـ/1550م)، **وصف إفريقيا**، ترجمة حميدة عبد الرحمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، 2005م، ص.139

48- من المفارقات أن بعض الفقهاء يقر بعدم الجدوى في الخوض في بعض المسائل، ثم هو يخوض فيها. نجد أبي يعقوب يوسف الوارجلاني وهو يُسأل عن الصفات، يُقرّ "أن هذه المسائل قليلة الجدوى فيما يتعلق بالبلوى إذ لا تؤثر في العبادات ولا تتقو في ترك الحرمات، وقد يحصل ذكر الله عز وجل في القلوب التي هي موقع نظر الباري سبحانه بأقل الخطرات، وتخرس الألسن عند ذكره عند من أشرف على الملكوت والجبروت دون التفهق والتشدق في هذا الوجه الخطر العظيم الضرر، فكأنما الخائض فيه خائض فيما لا يعني وشارع فيما لا يغني، وإذا لم تعفني من السؤال ولابد من الشروع في المقال فإني اقول ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..." أنظر: الوارجلاني، **مصدر سابق**، ص37. ---- 49- مجهول، **المعلقات**، ص.205

50- تدرج المصادر الإباضية، الخوارج ضمن الفرق المعنية بالمروق. أنظر: البرادي (أبي القاسم ابن ابراهيم)، **رسالة في الحقائق**، (ضمن مجموع رسائل)، طبع بالمطبعة البارونية بالجدرية بمصر، "طبعة حجرية"، (د.ت)، ص.41.

51- عرف عن سكان زوارة أنهم من بقايا النكار، ويبدو من خلال رسالة بعثوا بها إلى أحد فقهاء مزاب تأثرهم وضررهم من هذا التصنيف، حيث نجد في مقدمة رسالتهم قولهم: "إنا نشكو إلى الله العظيم ثم إليك من أن الناس ينسبون إلينا ما لم نقله." أنظر: اطفيش الحاج محمد بن الحاج يوسف، **جواب إلى أهل زوارة**، طبعة حجرية، ص.02

52- ابن خلدون. عبد الرحمان بن محمد (ت.808هـ/1405م)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمّان- الأردن، (د.ت)، ص.1615.

53- تجدر الإشارة أن التجربة الرائدة التي أقدم عليها ابن خلفون في القرن السادس هجري كانت محل تخوف وحيطة وشبهة من طرف فقهاء المذهب الإباضي، وقد حاولوا ثنيه عن مطالعة كتب "الخلاف" واعتقدوا فيه تنكره لمذهبه. أنظر: المقدمة التي وضعها النامي، ابن خلفون المزاتي. أبي يعقوب يوسف (ق.6هـ/12م)، **أجوبة ابن خلفون**، تحقيق وتعليق: عمرو خليفة النامي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1494هـ/1974م، ص.13 وما بعدها.

54- ابن خلفون، **نفس المصدر**، ص.30-31. ---- 55- أبو زكرياء، **مصدر سابق**، ص106. ---- 56- أبو زكرياء، **نفسه**، ص.134

57- ابن الصغير (القرن الثالث هجري)، **أخبار الأئمة الرستميين**، دراسة وتحقيق: محمد ناصر وابراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1985م، ص.31-32. ---- 58- ابن الصغير، **نفس المصدر**، ص. 27-28. ---- 59- **نفسه**، ص. .32

60- **نفسه**، ص. 102. ---- 61- لخضر بولطيف، **الفقيه والسياسي في الغرب الإسلامي**، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2005م، ص31. ---- 62- ابن خلدون، **مصدر سابق**، ص.1642

63- يبدو التعايش بين أتباع المذاهب على مستوى العوام أكثر تطبيقا، فبالرغم من حالات الاستقطاب المذهبي، شهدت بعض مناطق الاختلاط المالكي الإباضي زيجات مختلطة، أثبتتها كتب النوازل، ووقف لها الفقهاء بكل حزم وشدة. الونشريسي، **مصدر سابق**، ج.10، ص.150.

64- قيل أن الذي فعل ذلك شيخ آخر يدعى "فتوح بن أبي حاجب المزاتي" وهو من نفس الطبقة. ومهما يكن الشخص فإن التسائل المطروح هو: هل كان المصلون على علم بحقيقة الرجل الذي صلّى بهم وبمذهبه؟ أنظر: الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص347. ---- 65- عبد العزيز المجدوب، **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، تقديم علي الشابي، ط.2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م، ص.117.---- 66- عبد العزيز المجدوب، **نفس المرجع**، ص.117

67- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.1، ص.188.---- 68- ابن أبي زيد القيرواني، **مصدر سابق**، ص.211؛ الونشريسي، **مصدر سابق**، ج.10، ص.191-192.---- 69- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص.487

70- أبو عمار "عبد الكافي التناوتي الوارجلاني" (ت. قبل 570هـ/1174م)، **كتاب في اختصار المواريث والفرائض**، "رسالة ضمن مجموع رسائل"، "طبعة حجرية"، المطبعة البارونية بالجدرية- مصر، (د.ت)، ص.27

71- الشماخي. أبو العباس أحمد بن سعيد (ت.928هـ/1521م)، **كتاب السير**، دراسة وتحقيق محمد حسن، ط.1، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، 2009م، ج.2، ص641. ---- 72- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص501. ---- 73 - الدرجيني، **نفس المصدر**، ج.2، ص.514.---- 74- أبو زكرياء، **مصدر سابق**، ص137.---75- الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص504.

76- ورد هذا الحديث بلفظ مشابه في إحدى مصادر الحديث السنية، والحديث هو عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **إن فيك من عيسى مثلا أبغضته يهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به**» ألا وإنه يهلك في اثنان محب مفرط يقرظني بما ليس في ومبغض مفتر يحمله شنآني على أن يبهتني ألا وإني لست بنبي ولا يوحى إلي ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما استطعت فما أمرتكم به من طاعة الله عز وجل فحق عليكم طاعتي فيما أحببتم وكرهتم. عبد الله بن أحمد، **كتاب السنة**، ج.3، ص.193. "نسخة الشاملة"

77 -الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.2، ص415. ---- 78- أبو زكرياء، **مصدر سابق**، ص.121

79- أبو زكرياء، **نفس المصدر**، ص.167. يبدو تفوق النكار على الوهبية واضحاً في الفترة الفاطمية، بدليل قدرتهم على القيام بثورة كبيرة على الفاطميين. أنظر:

Allaoua Amara, La structuration des ibadites-wahbites au Maghreb (11e-15e siècle), Annales islamologiques, N°42, 2008, p. 261.

80- الحادثة وقعت بين ابو القاسم ابن العمودي من متصوفة توزر وبين أبو الحسن علي بن يخلف من فقهاء الاباضية، وبعد التعارف رأى ابن العمودي أن علي بن يخلف ينتمي لمذهب يبغضون علي بن أبي طالب، فتضايق ابن يخلف، وردّ أن اسمه علي ويكنى بأبي الحسن، ولا يستقيم البغض مع التسمية، فانقلب حالهما إلى ودّ. أنظر تفاصيل الحادثة، عند: الدرجيني، **مصدر سابق**، ج.02، ص516. ---- 81- أبو زكرياء، **مصدر سابق**، ص.134

82- دومينيك فاليرين، **بجاية ميناء مغاربي، (Bougie port Maghrébin)**، ترجمة علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014م، ج.1، ص304.